

الوحدة الأولى مفهوم الأخلاق، ومكانتها

أخي الطالب / أختي الطالبة:

يُتوقع بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على:

- ١ - معرفة مفهوم الأخلاق في اللغة والاصطلاح.
- ٢ - إدراك أهمية الأخلاق ومكانتها في الدين الإسلامي.
- ٣ - بيان جوانب الصلة بين الأخلاق، وغيرها من الجوانب ذات الصلة.

مفهوم الأخلاق، ومكانتها

✽ أولاً: مفهوم الأخلاق.

الأخلاق لغةً: جمع خُلِقَ، وهو السجية والطبع^(١).

ويختلف الخلق عن الخلق، فهما وإن كانا في الأصل واحد كالشرب والشرب، لكن خُصَّ الخلق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة^(٢).

كما يختلف الخلق وعن مصطلح الخيم، (بكسر الخاء)، يقول القرطبي في تفسيره: «وحقيقة الخلق في اللغة هو ما يأخذ الإنسان به نفسه من الأدب يُسمى خُلُقًا؛ لأنه يسير كالخليفة فيه، وأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخيم (بالكسر): السجية والطبيعة، لا واحد له من لفظه، فيكون الخلق الطبع المتكلف، والخيم الطبع الغريزي»^(٣).

الأخلاق اصطلاحاً: يطلق كثيرا على المعنى اللغوي، وهي الآداب الصادرة عن الطبع والسجية، ومن تعريف الخلق تعريف الإمام الغزالي لها، حيث قال: «الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية»^(٤). ثم شرع في تقسيم هذه السجايا إلى حسنة وقيحة، بحسب طبيعتها.

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة (خلق)، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي (٢٣٦/٣).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني (٢٩٧).

(٣) (٢٢٧/١٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٥٣/٣).

❁ ثانياً: أهمية الأخلاق ومكانتها.

الإسلام رسالة أخلاقية بكل ما تحمله هذه الكلمة من عمق وشمول، ولا غرو أن تكون «الأخلاقية» خصيصةً من خصائصه العامة، ورُوحاً تسري في جميع جوانبه، ولذا قصر رسول الله ﷺ الهدف من بعثته على ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ)^(١).

وقال ابن القيم رحمته الله: «الدين كله هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الدين»^(٢).

ومما يدل على أهمية الخلق الحسن:

١ - أن الخلق الحسن أعظم صفات الإيمان وأعلى درجاته؛ يدل على ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا)^(٣).

٢ - مَنْ تَخَلَّقَ بِالْخُلُقِ الْحَسَنِ كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَقْرَبِهِمْ مِنْهُ مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا)^(٤).

(١) أخرجه أحمد في المسند، مسند أبي هريرة، رقم الحديث: (٨٩٣٩)، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: صحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرک، رقم الحديث: (٤١٨٧)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم (٣٠٧/٢).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: رقم الحديث: (٤٦٨٤)، والترمذي في سننه، كتاب: الرضاع، باب: حق المرأة على زوجها، رقم الحديث: (١١٦٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وزاد (وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق: رقم الحديث: (٢٠١٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

٣ - الخلق الحسن يجعل المسلم من خيار الناس مطلقاً، فعن عبد الله بن عمرو رضي عنه أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا)^(١).

وقد أحسن الشاعر قولاً:

إِنَّمَا الْأُمَّمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ ❖ فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

٤ - الخلق الحسن من أعظم القربات وأجل العطايا والبهات؛ فعن أبي الدرداء رضي عنه قال: قال النبي ﷺ: (مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَدِيءَ)^(٢).

٥ - الخلق الحسن يدرك به المسلم درجة الصائم القائم، فعن عائشة رضي عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ)^(٣).

٦ - أن الخلق الحسن خير من الدنيا وما فيها؛ قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي عنه: (أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ)^(٤).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي ﷺ: رقم الحديث:

(٣٥٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الفضائل، باب: كثرة حياته ﷺ: رقم الحديث: (٢٣٢١).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الأدب، باب: في حسن الخلق، رقم الحديث: (٤٧٩٩)، والترمذي في سننه، كتاب: البر والصلة، باب: حسن الخلق، رقم الحديث: (٢٠٠٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الأدب، باب: في حسن الخلق (٤٧٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٢٢، ٧٩٥).

(٤) أخرجه أحمد في المسند، رقم الحديث: (٦٦٥٢)، والحاكم في المستدرک، رقم الحديث: (٧٩٥٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧٣٣).

٧- الخُلُقُ الحَسَنُ يحصل به جوامع الخيرات والبركات ؛ روى النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه قوله : (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ) ^(١).

٨- الخُلُقُ الحَسَنُ هو وصية رسول الله صلوات الله عليه إلى جميع المسلمين ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلوات الله عليه : (...وَخَالِقِ النَّاسَ يَخْلُقِ حَسَنًا) ^(٢).

❁ ثالثاً: آثار الأخلاق الحسنة على الفرد والمجتمع.

١ - كَسَبُ المرءِ رضا الله ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: ٢٢).

٢ - نشر المودة في المجتمع.

٣ - إنجاز الأعمال وزيادة الإنتاج.

٤ - المساعدة في مكافحة الجرائم والانحرافات بأنواعها المختلفة.

جوانب الصلة بين الأخلاق والعقيدة والعبادة والنظم الإسلامية

❁ أولاً: ارتباط الأخلاق بالعقيدة.

- جاءت العقيدة بالدعوة إلى إفراد الله بالعبودية ، قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَآجْتَنِبُوا آلطَّاغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦). والتوحيد هو

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب: البر ، باب: تفسير البر والإثم ، رقم الحديث : (٢٥٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب: البر والصلة ، باب: ما جاء في معاشره الناس : رقم الحديث : (١٩٨٧) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح.

- غاية العدل ؛ لأنه وضع للعبادة في موضعها الحق ، وتوجهٌ بها إلى مَنْ هو أهل للعبادة والخضوع ، والعدل فضيلة خلقية لا ينكرها أحد.
- والإيمان بالله ومحبه سبحانه تثمر في القلب - ضرورة - حب كل ما يحبه الله من الفضائل ، والمكارم ، والأخلاق.
- وحين يتكامل الإيمان تظهر آثاره وتجلياته فضائل أخلاقية عديدة نجدها ماثورة في آيات القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ.

ففي القرآن الكريم :

- ١ - قوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۗ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).
- ٢ - وقوله عَجَلًا : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۗ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۗ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۗ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۗ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۗ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۗ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۗ ﴾ (الفرقان : ٦٣ - ٦٨).

وفي السنة النبوية :

نجد الأحاديث النبوية تربط الفضائل الأخلاقية بالإيمان، وتجعلها من لوازمه وثمراته، ومن ذلك :

١ - ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) ^(١).

٢ - روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ،
وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ) ^(٢).

٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الإيمانُ بضعٌ وستونُ شعبةً:
أفضلُها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من
الإيمان) ^(٣).

٤ - وعنه رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ،
وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ) ^(٤).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ
جاره، رقم الحديث: (٥٦٧٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: الحث على إكرام الجار
والضيف، رقم الحديث: (٤٧).

(٢) أخرجه أحمد في المسند، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم الحديث: (١٢٣٨٣)، وحسنه البغوي في شرح
السنة (١٠٠/١).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: أمور الإيمان: رقم الحديث: (٩)،
ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء،
وكونه من الإيمان، رقم الحديث: (٣٥).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحدود، باب: فضل من ترك الفواحش، رقم الحديث:
(٦٨١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق، رقم الحديث: (٥٧).

٥ - والأخلاق سببٌ في نقص الإيمان أو زيادته، فعن أبي شريح رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) ^(١).

- ودعوة النبي صلى الله عليه وسلم كانت وثيقة الصلة بالأخلاق الفاضلة، قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).
فالدعوة مهمتها بعد توحيد الله تهذيب النفوس، وتدعيم الأخلاق، واجتناب الرذائل.

❁ ثانياً: ارتباط الأخلاق بالعبادات.

العبادات الإسلامية الكبرى ذات أهداف أخلاقية واضحة:

- فالصلاة لها وظيفة سامية في تكوين الوازع الذاتي، وتطهير النفس من الأخلاق الذميمة، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وهي عون للمسلم في مواجهة كد الحياة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣).
- والزكاة وسيلة تطهير وتزكية، تنتزع من النفس الحقد والشح، وتزرع فيها حب الإيثار والتكافل، قال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم الحديث:

- والصيام تدريب للنفس على الكف عن الشهوات، وبلوغها مرتبة التقوى التي هي جماع الأخلاق، قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) ^(١).

- والحج تدريب للنفس على الترفع عن زخارف الحياة وترفها؛ فيتخلق الحاجُ بخلق الإيثار، والتواضع، والسلام، قال تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧).

❁ ثالثاً: ارتباط الأخلاق بالنظم الإسلامية.

تميزت الشرائع الإسلامية النظامية بالاهتمام بالأخلاق، بما لا نظير له في نظام من النظم البشرية، ولولا ذلك لما كان هذا الدين شاملاً.

أ) ففي مجال السياسة والحكم:

- يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهَمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (الحج: ٤١).

- ويقول سبحانه أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصوم، باب: من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم: رقم الحديث: (١٩٠٣).

- وحين أراد بعض الصحابة رضي الله عنهم أن يشفعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم للمرأة المخزومية التي سرقت، قام النبي صلى الله عليه وسلم - كما روت عائشة رضي الله عنها - فقال: (إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحَدَّ عَلَى الْوَضِيعِ، وَيَتْرَكُونَ الشَّرِيفَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)^(١).

ب) وفي مجال الاقتصاد والتجارة:

أرسى الإسلام عدداً من الدعائم والأخلاقيات للنشاط الاقتصادي، ومنها الآتي:

- في مجال التوزيع والتملك، لا يجوز تملك ثروة من طريق خبيث، ولا تنميتها به، ولا يجل أخذ ما ليس بحق؛ لهذا حرم الإسلام الربا والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، والظلم.

فعن جابر رضي الله عنه قال: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم آكِلَ الرِّبَا وَمُؤَكِّلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيَهُ، وَقَالَ: هُمْ سَوَاءٌ)^(٢)، ونهى صلى الله عليه وسلم عن الاحتكار، روى معمر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ)^(٣).

- وفي مجال الاستهلاك، دعا إلى الاعتدال والتوسط، ونهى عن السرف والتبذير، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩)، وقال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الحدود، باب: إقامة الحدود على الشريف والوضيع، رقم الحديث: (٣٢٨٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب: الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم الحديث: (١٦٨٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب: لعن آكل الربا ومؤكله، رقم الحديث: (١٥٩٨).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساقاة، باب: تحريم الاحتكار في الأقوات، رقم الحديث: (١٦٠٥).